نظرات في إعجاز القرآن عند الباقلاني

د. سعد بن عبدالعزيز الدريهم[1].

المقدمة:

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله؛ فَلا مُضلَّ له، ومن يضلل؛ فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهدُ أن محمداً عبده ورسوله.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)[2]، (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا)[3].

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)[4]، [5].

وبعد: فالنظر فيما خلَّفه السابقون حول الإعجاز القرآني؛ يوقف الباحث على عمق البحث البلاغي، وأنه مستمد من الكتاب العزيز، لا يكاد يخرج عنه أو يغادره، فهو فن أصيل، وأصالته من أصالة منبعه وهو الذكر الحكيم. وفن هذا أصله لا بد أن يُحرص عليه، ويجعلَ منه مائدة يُغدى عليه في الرواح وفي البكور؛ لأنه يبني في الإنسان الإيمان ويأخذ به إلى معاقد اليقين والتسليم، وكثيراً ما كانت سياحتي في

---

(١) الأستاذ المشارك بكلية الملك خالد العسكرية.

(٢) آل عمران: ١٠٢.

(٣) النساء: ١.

(٤) الأحزاب: ٧٠، ٧١.

(٥) هذه خطبة الحاجة التي كان رسول الله ﷺ يعلمها أصحابه. انظر: خطبة الحاجة للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، طبع المكتب الإسلامي. وهذه الخطبة في سنن ابن ماجه، كتاب النكاح، باب خطبة النكاح، من رواية عبد الله بن مسعود: ٦٠٩/١- ٦١٠. ورواه الإمام أحمد في مسنده: ٢٧٢/٥، حديث رقم ٣٧٢، تحقيق/ أحمد شاكر، وقال: «إسناده من طريق أبي عبده ضعيف لانقطاعه، ومن طريق أبي الأحوص، عوف بن مالك بن نضلة صحيح لاتصاله». وقال الألباني عن الطريق الثاني: « صحيح على شرط مسلم» خطبة الحاجة: ١٤. وقد ورد ذكر طرف من هذه الخطبة في صحيح مسلم، كتاب الجمعة، باب خطبته ﷺ في الجمعة:١٥٧/٦.

القرآن تمر عبر ما كتب عن الإعجاز فيه، وكم أفدت منه، وكان لذلك الأثر الكبير في صقل نظراتي في القرآن الكريم، ولا تكاد تمر دراسة لي عن الإعجاز أو النظم القرآني- وهي كثر- إلاَّ ويكون النظر في الكتب المتخصصة في الإعجاز القرآني قنطرة لها؛ ككتاب الباقلاني "إعجاز القرآن"، والذي أنا بصدد الحديث عنه في هذا البحث، وكذلك كتب الرماني والخطابي والواسطي والجرجاني، وغيرها من الكتب التي أفردت للحديث عن ذلك، ورغم القيمة العلمية لهذه الكتب؛ فإنها لا زالت لا تلقى العناية من المتخصصين في البلاغة العربية أو النقد، مع أنها تُعَدُّ منهلاً للدراسة التطبيقية؛ كما أنَّ فيها الكثيرَ من الوقفات البلاغية والنقدية، التي لا نرى لها محلاً في كتب البلاغة أو قواعدها، وما أجمل أن ننطلق ونحن نتعاطى مع كتب الإعجاز غفلاً أي رأي أو حكم مسبق! عندها سنخرج بالكثير من الآراء التي ربما لم نسبق إليها، أو سبقنا إلى بعضها؛ لكن التوجه لها والتعامل معها كان من زاوية أخرى؛ كما أننا نحتاج ونحن ننعم النظر في كتب الإعجاز إلى شيء من الجُرْأَة؛ لتحطيم رأي سابق خاطئ، أو بناء رأي لم نسبق إليه، وأن نكون جانبًا من المسؤولية لتحمل تبعات ما قد نسطِّره، وكم ترك الأول للآخر، وأزعم أنني في هذه الأوراق من هذا البحث سرتُ وفق ما أملت أو تمنيت.

وقد جعلت هذا البحث في:

مقدمة: وهي التي أتعاطى كتابتها وتسطيرها، حيث أشرت فيها إلى أهمية البحث في إعجاز القرآن، وكذلك الكتب التي تعنى بالإعجاز القرآني، وأهميتها للباحث في البلاغة والنقد، وأنها تفتق لديه ملكة التطبيق والمناقشة حول الإعجاز، ثم أشرت لمكونات البحث وخطته.

بعد ذلك التمهيد: وقد جعلته في مبحثين: المبحث الأول حول الإعجاز وتطور الدراسات حوله. والثاني: ترجمة موجزة للإمام الباقلاني رحمه الله.

بعد ذلك تأتي الدراسة مفصلة، ثم النتائج، فالفهارس.

والله أسأل أن يجعلني مباركًا أينما كنت، وأن ينفعني وينفع بي إنه جواد كريم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

د. سعد بن عبدالعزيز الدريهم

الرياض

التَّمْهِيدُ

المبحث الأول: الحديث عن الإعجاز:

كلمة الإعجاز في اللغة من "**أَعْجَزَ**"، وأعجزه الشيء إذا لم يتمكن من مجاراته، ومنه "**مُعْجِزَة**"، أي: شيء خارق للعادة يأتي على يد الأنبياء عليهم السلام، والمصطلح "**مُعْجِزَة**"، يستخدم لكل حالة صعبة المنال إذا تم تحقيقها، وكذلك إعجاز.

يقول أهل اللغة في هذه الكلمة: "**أَعْجَزَهُ**" الشيء: فاته، و"**عَجَّزَهُ تَعْجِيزاً**": ثبَّطه، أو نسبه إلى العَجْز، و"**المُعْجِزَةُ**": واحدة، و"**مُعْجِزَات**" الأنبياء عليهم السلام، وهي غير المَعْجَزَة بفتح الجيم وكسرها، وتعني عدم القدرة، و"**العَجْزُ**"، أي: الضعف(١).

وتأتي مادة "ع ج ز" في لغة العرب لمعنيين: أخذ الإعجاز، والمعجزة من أحدهما، وهو: الضعف والعجز، تقول: "عَجَزَ" عن الشيء يعجز عجزاً فهو عاجز إذا ضَعُف، وتقول: أعجزني فلان إذ عَجَزْت عن طلبه وإدراكه، ومنه قوله تعالى: (وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا)(٢)، وقوله تعالى: (وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ)(٣).

قال صاحب اللسان: ومعنى الإعجاز: الفَوْت، والسَّبْق. والمعجِزة: واحدة معجزات الأنبياء عليهم السلام الدالة على صدقهم، وسُمِّيت معجزة؛ لأن البشر يعجزون عن الإتيان بها(٤).

والإعجاز في الاصطلاح: هو أمر خارق للعادة؛ مقرون بالتحدي؛ سالم عن المعارضة. فهذا يعني أن الأمر في البداية من الله تعالى إلى رسوله الكريم ﷺ، ثم يتم تبليغ هذا الأمر من الرسول الكريم ﷺ الناس كافة، وكون هذا الأمر خارقاً للعادة يعني استحالة الإتيان بمثله؛ لأنه فوق قُدرة البشر، وإن كان في ظاهره في مقدورهم

(١) لسان العرب: ٥ / ٣٦٩، وما بعدها؛ مختار الصحاح: ٤١٣.
(٢) سورة الجن آية: ١٢.
(٣) العنكبوت آية ٢٢.
(٤) اللسان: ٥ / ٣٧٠.

وفي مكنتهم؛ لأن أجزاءه ومفرداته مما يعرفون.

وهذا التحدي كان ممتداً مستوعباً الزمان والمكان والخَلْق؛ فهو منذ إنزاله وحتى يرث الله الأرض ومن عليها، وهو لأهل الأرض جميعاً جِنِّهم وإنسهم. يقول تعالى: (فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ)[1]، هذا الإعجاز والتحدي مرتبط بالقرآن دون غيره من مفردات الوحي التي نزلت على النبي ﷺ؛ لأن اللفظ والمعنى من الله سبحانه قد تكلم به الحق سبحانه، وألقاه على رسوله؛ فبلغه دون زيادة أو نقصان، وهو محفوظ على الكيفية التي أنزل عليها حتى يأذن الله برفعه آخر الزمان، كما قال تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)[2]، ويمكن أن نَعدَّ كلَّ ما دار حول القرآن الكريم، من شروح وتفاسير وتوضيحات وإرشادات تخدم غرضه، وتبين مقصده، وتعد بدية لدراسة الإعجاز القرآني.

ودوافع الدراسات حول الإعجاز القرآني يمكن إجمالها في: أن الدولة الإسلامية عندما ازدادت رقعتها وتوسعت، وكثر الداخلون فيها، احتاج القوم إلى شيء من التسجيل والتوضيح، وتبيان أسرار القرآن الكريم، زيادة على ذلك أصبحت الحاجةُ ملحةً إلى تسجيل هذه الظاهرة لصدِّ هجوم المشككين في الرسالة وقيمتها من الشعوبيين وغيرهم من مثل الذين نالوا من عقائد المسلمين بالتهوين والسخرية والاستهزاء؛ لمثل هذه الدوافع بدأت ظاهرة "**الإعجاز القرآني**" تأخذ نصيبها من التسجيل في أثناء البحوث والدراسات، ولم تستقلَّ في كتب خاصة، فقد كانت بدايات تلك الظاهرة في كتب النحويين من مثل كتاب "**مجاز القرآن**" لأبي عبيدة معمر بن المثنى– رحمه الله– وكتب اللغويين من مثل كتاب "**غريب القرآن**" لابن قتيبة، وعند البلاغيين: من مثل كتابي "**دلائل الإعجاز**" و"**أسرار البلاغة**" لعبد القاهر الجرجاني، وعند المفسرين: من مثل "**تفسير ابن جرير الطبري**"، و"**الكشاف**" للزمخشري.

---

(١) البقرة آية: ٢٤.

(٢) الحجر آية: ٩.

وكانت بداية ظهور كتب الإعجاز القرآني في القرن الثالث الهجري، ومن أوائل تلك الكتب كتاب "**نظم القرآن**" للجاحظ- رحمه الله- وعنوان كتاب الجاحظ وكلامه عنه يوحي بأن الجاحظ يرد إعجاز القرآن الكريم إلى النظم، وإن كان ليس بوسعنا أن نعرف المدى الذي وصل إليه الجاحظ في ذلك؛ لأن كتابه هذا قد سقط من يد الزمن، إلا أن تسميته بهذا الاسم تدل على أنه توخَّى العلاقات بين الآيات بعضها ببعض، وأنه جمع كثيراً من العناصر البلاغية في هذا الكتاب. هذا الحكم على كتابه، وعلى محوره وهو النظم راجع إلى ما جاء في بعض كتبه الأخرى من حديث عن نظم القرآن.

يقول الجاحظ في مقدمة كتابه **الحيوان** أثناء رده على من عاب بعض كتبه ومؤلفاته: "كما عبت كتابي في الاحتجاج لنظم القرآن، وغريب تأليفه، وبديع تركيبه"(١).

ويقول: "وفي كتابنا المنزل الذي يدل على أنه صدق نظمه البديع الذي لا يقدر على مثله العباد مع ما سوى ذلك من الدلائل التي جاء بها من جاء به"(٢).

فهذان النصان وغيرهما يدلان على أن الجاحظ يُرجع إعجاز القرآن إلى نظمه الذي يأخذ بالقلوب كل مأخذ. ولو أن كتابه هذا بين أيدينا لكان بإمكاننا أن نكشف عن رأيه الواضح في هذه المسألة؛ لأن النقول التي وصلت إلينا لا تعطي فكرة واضحة عن فحواه.

وفي القرن الرابع نجد كتباً كثيرة درست الإعجاز من جميع نواحيه؛ من ذلك "**البيان في إعجاز القرآن**" للخطابي- رحمه الله- وفيه يرى أن القرآن إنما صار معجزاً؛ لأنه جاء بأفصح لفظ في أحسن نظم وتأليف مضمناً أصح المعاني، ويقول: إن عمود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات، هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به، الذي إذا أبدل مكانه

(١) الحيوان: ١ / ٩.
(٢) الحيوان:١ / ٩٠.

غيره جاء منه: إما تبدل المعنى الذي منه فساد الكلام، وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة(١).

و"**النكت في إعجاز القرآن**" للرماني- رحمه الله- حيث يرى أن أعلى مرتبة في حسن البيان ما جمع أسباب الحسن في العبارة: من تعديل النظم حتى يحسن في السمع، ويسهل على اللسان، وتقبله النفس تقبل البرد(٢).

ومن بعدهما السفر النفيس كتاب "**إعجاز القرآن**"، للباقلاني- رحمه الله- وهو الكتاب الذي نحن بصدد الحديث عنه، وسيأتي الحديث عنه مفصلاً في هذه الدراسة.

وكذلك الجزء السادس عشر من كتاب "**المغنى في أبواب التوحيد والعدل**" للقاضي عبد الجبار- رحمه الله- باسم "**إعجاز القرآن**"، وفي القرن الخامس جاءت دراسات الإمام عبد القاهر الجرجاني- رحمه الله- باسم "**دلائل الإعجاز**"، وفي القرن السادس دراسة محمد بن عمر الرازي- رحمه الله- في كتابه "**نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز**"، وهو تلخيص لما كتبه عبد القاهر الجرجاني في كتابيه "**الدلائل والأسرار**" الآنفة الذكر، وفي القرن السابع ظهر ابن أبي الأصبع المصري- رحمه الله- في كتابه "**بديع القرآن**"، وفي القرن الثامن برز العلوي- رحمه الله- يحي بن حمزة في كتابه "**الطراز**".

وفي القرون اللاحقة توالت الدراسات من مثل دراسة السيوطي في كتابه "**معترك الأقران في إعجاز القرآن**"، وفي العصر الحديث كثرت دراسة الإعجاز القرآني، ومن ذلك ما سطره الرافعي- رحمه الله- في كتابه "**إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**"، وكتاب الدكتور عبد الله دراز "**النبأ العظيم**" وغيرهم كثير.

---

(١) بيان إعجاز لقرآن: ٢٩.

(٢) النكت في إعجاز القرآن: ١٠٧.

المبحث الثاني: حياة الباقلاني ومؤلفاته:

هو الإمام العلامة أوحد المتكلمين، مقدم الأصوليين، القاضي أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن قاسم المعروف بالباقلاني البصري، ثم البغدادي، وهو ممن يضرب به المثل بفهمه وذكائه(١).

ولد عام ثمانية وثلاثين وثلاثمائة للهجرة، وهو من أهل البصرة وسكن بغداد، وهو على مذهب الشيخ أبي الحسن الأشعري، ويؤيد اعتقاده، ويناصر طريقته. كان في علمه أوحد زمانه، موصوفاً بجودة الاستنباط وسرعة الجواب، كثير التطويل في المناظرة عند الجماعة.

مشايخه وتلامذته:

سمع الحديث في بغداد من أبي بكر بن مالك القطيعي، وأبي محمد بن ماسي، وأبي أحمد الحسين بن علي النيسابوري، وقد أخذ علم النظر عن أبي عبد الله بن محمد بن أحمد بن مجاهد الطائي صاحب الأشعري(٢).

مؤلفاته:

ألف الباقلاني- رحمه الله- في الرد على الرافضة، والمعتزلة، والخوارج، والجهمية، فمن كتبه إعجاز القرآن، والانتصار، وكشف الأسرار الباطنية، والملل والنحل، ومناقب الأئمة، ونهاية الإيجاز في رواية الإعجاز، وهداية المسترشدين في الكلام، والإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به.

وفاته:

توفي القاضي أبو بكر الباقلاني آخر يوم السبت، ودفن يوم الأحد لسبع بقين

---

(١) انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء: ١٧ / ١٩٠؛ وفيات الأعيان: ٤ / ٢٦٩؛ ترتيب المدارك: ٤ / ٥٨٥؛ المنتظم: ٧ / ٢٦٥؛ اللباب: ١ / ١١٢؛ العبر: ٣ / ٨٦؛ البداية والنهاية: ١١ / ٣٥٠؛ الوافي بالوفيات: ٣ / ١٧٧؛ شذرات الذهب: ٣ / ١٦٨؛ مرآة الجنان: ٣ / ١٠٠٦؛ إيضاح المكنون: ٢ / ٦٦٩؛ هدية العارفين: ٢ /٥٩.

(٢) انظر: تاريخ بغداد: ٥ / ٣٧٩، ٣٨٠؛ ترتيب المدارك: ٤ / ٥٩٦.

من ذي القعدة، سنة ثلاث وأربعمائة ببغداد رحمه الله تعالى، وصلى عليه ابنه الحسن، ودفنه في داره بدرب المجوس، ثم نُقِل بعد ذلك، فدفن في مقبرة باب حرب[1].

يقول عنه صاحب الوفيات: كان في علمه أوحد زمانه، انتهت إليه الرياسة في مذهبه وكان موصوفاً بجودة الاستنباط وسرعة الجواب وكان كثير التطويل في المناظرة، مشهوراً بذلك عند الجماعة[1].

نظرات في إعجاز القرآن عند الباقلاني

ذكر الباقلاني في مقدمة كتابه النفيس "**إعجاز القرآن**": "أن القرآن الكريم كتاب يتضمن صدق متحمله، ورسالة تشمل على قول مؤديها. بَيَّن فيه سبحانه أن حجته كافية هادية لا يحتاج مع وضوحها إلى بينة تعدوها أو حجة تتلوها، وأن الذهاب عنها كالذهاب عن الضروريات، والتشكك في المشاهدات"[1].

ثم يقول أيضاً: "ومن أهم ما يجب على أهل دين الله كشفه، وأَوْلَى ما يلزم بحثه، ما كان لأصل دينهم قِواماً، ولقاعدة توحيدهم عماداً ونظاماً، وعلى صدق نبيهم ﷺ برهاناً، ولمعجزته ثبتاً وحجة؛ لا سيما والجهل ممدود الرواق، شديد النفاق، مستولٍ على الآفاق، والعلم إلى عفاء ودَرس، وعلى خفاء وطمس[2].

ولقد شكى الباقلاني في الكتاب من تقصير العلماء في البحث حول إعجاز القرآن، حيث بيَّن أن بسط القول في الإبانة عن وجه معجزته، والدلالة على مكانه؛ أحقُّ بكثير من الذين صنفوا فيه من القول في الجزء والطفرة، ودقيق الكلام في

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء: ١٧ / ١٩٠؛ وفيات الأعيان: ٤ / ٢٦٩؛ ترتيب المدارك: ٤ / ٥٨٥؛ المنتظم: ٧ / ٢٦٥؛ اللباب: ١ / ١١٢؛ إيضاح المكنون: ٢ / ٦٦٩؛ هدية العارفين: ٢ /٥٩.

(٢) وفيات الأعيان: ٤ / ٢٦٩ .

(١) إعجاز القرآن: ٣.

(٢) إعجاز القرآن: ٣، ٤.

الإعراض وكثير من بديع الإعراب، وغامض النحو. فالحاجة إلى هذا أمس، والاشتغال به واجب[٣].

بعد ذلك يقدم- رحمه الله- العذر لأولئك العلماء؛ فيقول: "وقد يُعذر بعضُهم في تفريط يقع منه فيه، وذهاب عنه؛ لأن هذا الباب مما لا يمكن إحكامه إلا بعد في التَّقَدُّم في أمور شريفة المحل، عظيمة المقدار، دقيقة المسلك، لطيفة المأخذ"[٤].

وقبل أن يبدأ الباقلاني حديثه عن الإعجاز نراه يلوي على من ألف قبله في مضمار الإعجاز، حيث نراه ذكر الجاحظ، وأبان أنه ألف كتاباً أسماه "**نظم القرآن**"؛ لكنه لم يزد فيه على ما قاله المتكلمون قبله، ولم يكشف عما يلتبس في أكثر هذا المعنى[٥].

ويظهر لي أن الباقلاني- رحمه الله- قد هضم الجاحظ حقه وتَقَدُّمَه، ولعل ذلك راجع إلى أن الجاحظ كان من رؤوس المعتزلة، والباقلاني من رؤوس الأشاعرة، وما بين المذهبين من تنافر وخلاف أجلُّ من أن يخفى.

ويُعَدُّ كتاب "**إعجاز القرآن**" للباقلاني، والذي نحن بصدد تدارسه والحديث عنه في هذا البحث من أهم الكتب التي تتحدث عن قضايا الإعجاز القرآني ومن أنضجها، وهو في الوقت ذاته من المصادر البلاغية الأساسية، التي أسهمت في تحديد مسار الدرس البلاغي وتوجيهه.

والقضايا البلاغية ومباحثها في هذا الكتاب، تختلط بالقضايا الكلامية اختلاطا متوازنا، فنلحظ أن القضايا البلاغية تنفرد ببعض فصول الكتاب، وتنفرد القضايا الكلامية بفصول أُخرى، وهناك فصول كانت شَرَاكَةً بين القضايا البلاغية والقضايا الكلامية؛ كالفصل الذي كتبه عن "**جملة من وجوه إعجاز القرآن**"[١]، حيث حصر

(٣) انظر: إعجاز القرآن: ٥.
(٤) إعجاز القرآن: ٥.
(٥) إعجاز القرآن: ٦.
(١) إعجاز القرآن: ٣٣.

الإعجاز القرآني في هذا الفصل في مجموعة من الوجوه: بعضها كلامي، وبعضها بلاغي[٢].

ولعل الذي يهمنا هنا في هذا البحث هو التعرف على المباحث البلاغية في كتاب "**إعجاز القرآن**"، وهل كانت تمثل طبيعة العصر الذي عاش فيه المؤلف؟ وهل لها من أثر في تطور البحث البلاغي؟

فعندما نقلب الطَّرْف في تضاعيف كتاب الباقلاني الإعجاز؛ نلحظ أنه يَرُدُّ الإعجاز القرآني إلى أوجه ثلاثة:

أولها: الإخبار عن الغيوب، وهذا أمر يخرج عن طاقة البشر واستطاعتهم؛ فمن ذلك ما وعد الله نبيه ﷺ من أنه سيُظهر دينه على سائر الأديان بقوله تعالى (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)[١]؛ ففعل ذلك، وكان أبو بكر الصديق– رضي الله عنه– إذا أغزى جيوشه عرَّفهم ما وعدهم الله، من إظهار دينه؛ ليثقوا بالنصر، ويستيقنوا بالنجح[٢].

والثاني: الإخبار عن قصص الماضين وسير الأمم الخالية منذ عهد آدم– عليه السلام– وحتى بعثة النبي ﷺ رغم أمية النبي ﷺ وعدم معرفته بشيء من كتب المتقدمين وقصصهم وأنبائهم وسيرهم، ونحن نعلم ضرورة أن هذا مما لا سبيل إليه إلا عن تعلم؛ لذا قال الحق سبحانه: في الكتاب العزيز: (وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ)[٣]، [٤].

---

(٢) انظر: إعجاز القرآن: ٣٣ . ٤٧.
(١) التوبة آية ٣٣.
(٢) إعجاز القرآن: ٣٣.
(٣) العنكبوت آية: ٤٨.
(٤) إعجاز القرآن: ٣٤.

والثالث من أوجه الإعجاز: ذلك النظم البديع، والتأليف العجيب، والبلاغة المتناهية التي يعجز البشر عن محاكاتها(٥).

ومن خلال سَبْر النسق الذي سار عليه "**أبويكر الباقلاني**"– رحمه الله– نلحظ أنه لا يكاد يقف على الوجهين الأولين كثيراً، ولا يحفل بهما، لكن كان له شأن آخر مع الوجه الثالث، حيث أَجْلَبَ من خلاله وبأسلوبه الرائع وقدرته الفائقة في الاستنباط، من أجل إثبات تميز الأسلوب القرآني، والبلاغة القرآنية على أساليب البشر وبلاغتهم، وينحى في ذلك منحى مغايراً للمناحي التي نحاها السابقون في إثبات الإعجاز البلاغي للقرآن.

فالباقلاني يردُّ فكرة إثبات الإعجاز البلاغي للقرآن عن طريق ما فيه من بديع، ويطرح سؤالاً في مقدمة الفصل الذي ذكر فيه البديع، وفحواه: "إن سأل سائل فقال: هل يمكن أن يُعرف إعجاز القرآن من جهة ما تضمنه من البديع؟"؛ وقبل أن يذكر الإجابة قام باستعراض كثيرٍ من موضوعات علم البديع، وأطنب في ذلك مناقشاً ومستشهداً، وبعد صفحات تربو على الأربعين(١)؛ جاء الجواب منه عن هذا السؤال؛ فقال: "لا سبيل إلى معرفة إعجاز القران من البديع الذي ادّعوه في الشعر ووصفوه فيه.

وذلك: أن هذا الفن ليس فيه ما يَخرِق العادة، ويخرج عن العرف، بل يمكن استدراكه بالتعلم والتدرب به، والتصنع له، كقول الشعر، ورصف الخطب، وصناعة الرسالة، والحذق في البلاغة، وله طريق يُسلك، ووجه يُقْصد، وَسُلَّم يُرتقى فيه إليه، ومثال قد يقع طالبه عليه"(٢).

فالباقلاني يرى أن البديع ليس خارجاً عن قدرة البشر وطاقتهم. فالإنسان يستطيع أن يأتي في كلامه بشيء من ذلك كالتشبيه، أو الاستعارة، أو الطباق؛ لأن

---

(٥) إعجاز القرآن: ٣٥.
(١) انظر: إعجاز القرآن: ٦٦ . ١١١.
(٢) إعجاز القرآن: ١١١.

هذه الأنواع وغيرها في حد ذاته ليست بمعجزة، وإنما الإعجاز جاء من الصورة الباهرة التي وجد عليها في القرآن، واتساقه مع سائر النظم القرآني اتساقا عجيباً ورائعاً، بينما نجد أن الشعر، والنثر البشري يحتوي على التشبيه البليغ، أو الاستعارة الجيدة، ولكن يصطف إلى جوارها التعبير الساقط، واللفظ المبتذل، وهذا ما جعل الباقلاني يُجهد نفسه في كتابه هذا لإثبات ذلك.

والباقلاني استخدم مصطلح "**البديع**" بمفهومه العام الشامل، الذي كان متعارفاً عليه في عصره، الذي يشمل المباحث والفنون البلاغية قاطبة من: معانٍ، وبيان، وبديع، وهي في العصر الذي وجد فيه- رحمه الله- لم تكن قد تحددت وتمايزت واستقلت على الحال التي هي عليها الآن، فهو مثلا يرى أن الاستعارة والتشبيه من "**البديع**"(١)، وهما الآن مما يقوم عليهما "**علم البيان**"، وهو يعتبر المساواة وبعض صور الإطناب من البديع(٢)، وهي الآن من موضوعات "**علم المعاني**"، وكذلك الصور التي اندرجت تحت قسم "**البديع**" تحت هذا المصطلح؛ كـ "**المطابقة**"(٣)، و"**التجنيس**"(٤)، و"**رد الأعجاز على الصدور**"(٥)، وغيرها كثير.

كما يرفض الإمام الباقلاني- رحمه الله- أيضا فكرة التوصل إلى إثبات إعجاز القرآن عن طريق أقسام البلاغة العشرة التي حددها "**الرماني**"، حيث عقد فصلا بعنوان "**فصل في وصف وجوه البلاغة**"(٦) لخَّص فيه أقوال "**الرماني**" الذي يرمي إليه، وإن لم يصرح بأسمه، حيث يقول: "ذكر بعض أهل الأدب والكلام(٧) أن

(١) انظر: إعجاز القرآن: ٦٦، ٦٧، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤ .
(٢) انظر: إعجاز القرآن: ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥.
(٣) إعجاز القرآن: ٨٠.
(٤) إعجاز القرآن: ٨٣.
(٥) إعجاز القرآن: ٩٣.
(٦) إعجاز القرآن: ٢٦٢ ـ ٢٨٧.
(٧) النكت في إعجاز القرآن: ٧٦؛ ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن.

البلاغة على عشرة أقسام: الإيجاز، والتشبيه، والاستعارة، والتلاؤم، والفواصل، والتجانس، والتصريف، والتضمين، والمبالغة، وحسن البيان"[٨].

وبعد أن فَرَغ من استعراض آراء "**الرماني**" حول هذه المباحث؛ يرى أن هذه الوجوه العشرة تنقسم إلى قسمين:

قسم يمكن الوقوع عليه والتعمل له، ويُدرك بالتَّعَلُّم، فما كان كذلك فلا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن به.

وأما ما لا سبيل إليه بالتَّعَمُّل من البلاغات، فذلك هو الذي يدل على إعجازه[١].

ويضرب لذلك مثلا، بأننا لو قلنا: بأن ما في القرآن من تشبيه معجز في ذاته، فسوف يُعْتَرض علينا بما في الأشعار من تشبيهات رائعة، ويمثل لذلك بما في شعر ابن المعتز من تشبيه بديع يشبه السحر، وقد تتبع في ذلك ما لم يتتبع في غيره، واتفق له في ذلك ما لم يتفق لغيره[٢].

وينتهي الباقلاني من ذلك، إلى أن مثل هذه الوجوه البلاغية ليست بمعجزة في حدَّ ذاتها، وإنما المعجز في هذه الوجوه هو:

أولاً: حسنها البالغ وسموها.

وثانيها: ارتباطها واتساقها مع بقية الكلام، على نحو بالغ الروعة والتكامل، بحيث لا يحس القارئ بأي قَدْر من التفاوت البلاغي في هذا الكلام الرباني، الذي يضارع بعضه بعضاً في البلاغة والفصاحة[٣].

---

(٨) إعجاز القرآن: ٢٦٢.
(١) إعجاز القرآن: ٢٧٥.
(٢) إعجاز القرآن: ٢٧٥، ٢٧٦.
(٣) إعجاز القرآن: ٢٧٥.

والباقلاني يجعل الوجه البلاغي للإعجاز القرآني، أي: بديع نظمه، وعجيب تأليفه في عشرة أوجه: بعضها يرجع إلى القرآن في جملته، وبعضها يرجع إلى بعض أساليبه، وبعضها يرجع إلى مفرداته، وبعضها يرجع إلى حروفه(٤).

فالذي يرجع إلى جملته؛ وذلك أن نظم القرآن على تصرف وجوهه، وتباين مذاهبه؛ خارجٌ عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، فليس هو بالشعر، ولا بالنثر، وليس هو بالسجع ما هو معروف للبشر من أجناس الكلام، وهو يبذل جهدا كبيرًا في محاولة إثبات مخالفة القرآن في جملته لجنس كلام البشر(١).

ومما يرجع إلى جملته أيضا: أنه لم يعهد للعرب كلام يشتمل على ما في القرآن من فصاحة وبلاغة، والتصرف البديع، والمعاني اللطيفة، والفوائد الغزيرة، والحكم الكثيرة، والتناسب في البلاغة والتشابه في البراعة على هذا الطول، وعلى هذا القدر، وإنما عرفت لهم مقطوعات نثرية قصيرة، وقصائد شعرية معدودة لم تخل من نقص وعيب(٢).

ومما يرجع إلى جملته كذلك: أنه على تعدد أغراضه ومراميه من قصص ومواعظ وأحكام، وترغيب وترهيب، لا يتفاوت في بلاغته، فهو دائما على درجة واحدة من البلاغة السامية، بينما نجد أن الشعراء والأدباء المجيدين، إنما يجيدون في بعض الأغراض دون سواها، فالذي يجيد في المدح لا يجيد في الهجاء مثلا، والذي يبرع في الخطب لا يبرع في الحكم والأمثال، ونحو ذلك(٣).

وأما ما يرجع إلى أساليبه، فيذكر من ذلك أن القرآن الكريم، قد اشتمل على

---

(٤) إعجاز القرآن: ٣٥ . ٤٧.
(١) إعجاز القرآن: ٣٥ . ٣٦.
(٢) إعجاز القرآن: ٣٦ .
(٣) إعجاز القرآن: ٣٦ . ٣٨.

كل الأساليب البلاغية، التي تنبني عليها أجناس الكلام البشري من: إيجاز، وإطناب، ومجاز وحقيقة، واستعارة، وتصريح، كل ذلك مما يتجاوز حدود كلامهم، في الفصاحة والإبداع والبلاغة(٤).

ويذكر من ذلك أيضا أن بلاغته لا تتفاوت في الانتقال من أسلوب إلى أسلوب، ولا من طريقة من طرق القول إلى طريقة أخرى، ويذكر من ذلك: أننا إذا أخذنا آية قرآنية ووضعناها في ثنايا أي كلام، نظمًا كان أو نثرا، فإنها تكون هي واسطة العقد في هذا الكلام كالدرة التي ترى في عقد من الخرز على حد تعبيره(١).

وأما ما يرجع إلى مفرداته، فمن ذلك أنه استعمل بعض المفردات في معان ومدلولات جديدة، لم تكن مألوفة في البيئة العربية قبل الإسلام، ومن ذلك أيضا بُعده عن المفردات المستكرهة الثقيلة على السمع.

وأما ما يرجع إلى حروفه، فهو أن في القرآن ثمانياً وعشرين سورة افتتحت بحروف مقطعة من الحروف العربية الثمانية والعشرين، وقد اشتملت هذه السور على أربعة عشر حرفا من حروف الهجاء، أي نصف حروف الهجاء، وهذه الحروف الأربعة عشر اشتملت على نصف كل قسم من الأقسام التي انقسمت إليها حروف العربية، حيث اشتملت على نصف حروف الهمس، ونصف حروف الجهر، كما اشتملت على نصف حروف الحلق، ونصف حروف الإطباق، ونصف الحروف الشديدة الانفجارية، وهذا التنظيم والتقسيم البديع، هو بدون شك وجه من وجوه الإعجاز الناصعة في القرآن الكريم. وواضح لنا أن القاسم المشترك بين هذه الوجوه هو مخالفة البيان القرآني لكلام البشر(٢).

وهذه هي القضية الأساسية التي شَغَل الباقلاني نفسه على امتداد صفحات

---

(٤) إعجاز القرآن: ٤٢.
(١) إعجاز القرآن: ٤٢.
(٢) إعجاز القرآن: ٤٤ . ٤٦.

كتابه لإثباتها، وهو خلال ذلك يعمل إلى تحليل بعض النماذج الأدبية الرائعة، التي اتفق الجميع على بلاغتها، ليبين ما فيها من عيوب تعبيرية، ويحلل في مقابل ذلك آيات وسورًا من القرآن، يبين ما فيها من بلاغة لا تتفاوت ولا تهبط[٣].

وفي سبيل تفضيل الأسلوب القرآني على الأسلوب البشري ارتكب الباقلاني ألواناً من التعسف والتكلف، وأجهد نفسه في تمحل العيوب في نماذج الشعر التي اختارها، ولكنه حتى في تعسفه وتحامله؛ كان يصدر عن ذوق نقدي بارع، هو الذي جعله يجرؤ على هذه المهمة الصعبة، فقد كان من بين النماذج التي اختارها وبيان ما فيها من عيوب معلقة امرئ القيس، وقصيدة البحتري المشهورة[١].

هذا وقد تناثرت خلال الكتاب مجموعة من الآراء البلاغية والنقدية الدقيقة، من مثل نظرته إلى ضرورة وحدة العمل الأدبي، وموقفه من قضية المحسنات البديعية، فالباقلاني له موقف على قدر من النضج والكمال فيما يتصل بموضوع وحدة العمل الأدبي، وقد تجلى هذا الموقف في أكثر من موضع في الكتاب، وبأكثر من صورة[٢].

وموقف الباقلاني من قضية المحسنات البديعية لم يكن أقل نضجا وتفتحا من موقفه منقضية وحدة العمل الفني، فهو لا يفتأ يلح على انتقاد هذه المحسنات إذا لم يقتضها المعنى، ويستلزمها السياق الفني، أي: أنه يَعُدُّ هذه المحسنات أدوات فنية تعبيرية، تكتسب قيمتها الفنية من الدور التعبيري الذي تؤديه، فإذا لم تؤد دوراً في العمل الأدبي؛ كانت عيباً من العيوب، وليست مزية من المزايا.

---

(٣) إعجاز القرآن: ٢١١ ـ ٢٢١.

(١) إعجاز القرآن: ٢١٩ ـ ٢٢٠.

(٢) إعجاز القرآن: ٢٠٩، انظر لحديثه عن سورة الإسراء.

فهرس المراجع

١- إعجاز القرآن، أبو بكر الباقلاني، تحقيق: أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، ط٣.
٢- إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، إسماعيل باشا بن محمد أمين بن مسير سليم، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣هـ.
٣- البداية والنهاية، ابن كثير، دار الفكر، بيروت.
٤- بيان إعجاز القرآن، أبو سليمان الخطابي، تحقيق: محمد خلف الله أحمد، ود. محمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، ط ٤، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن.
٥- تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي، دار الكتب العربي، بيروت لبنان.
٦- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، للقاضي عياض اليحصبي، تحقيق/ أحمد بكير محمود، مكتبة الحياة، بيروت.
٧- خطبة الحاجة، محمد بن ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٣، ١٣٩٧هـ.
٨- رسائل الجاحظ، الجاحظ، مطبعة التقدم، مصر، ١٣٢٣هـ.
٩- سنن ابن ماجه؛ للإمام أبي محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار التراث العربي، بيروت،١٣٩٥هـ.
١٠- سير أعلام النبلاء، الإمام الذهبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٨، ١٤١٢هـ.
١١- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد الحنبلي، المكتب التجاري، بيروت.

١٢- صحيح مسلم، ترتيب: محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة الإسلامية، تركيا استنبول.
١٣- العبر في أخبار من غبر، للذهبي، تحقيق/ المنجد، وفؤاد السيد، الكويت ١٩٦٠م.
١٤- فتح الباري، ابن حجر، المطبعة السلفية، مصر.
١٥- كتاب الحيوان، للجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، المجمع العلمي الإسلامي، بيروت، ط ٣، ١٣٨٨هـ.
١٦- مرآة الجنان وعبرة اليقظان، اليافعي، حيدر آباد، ١٣٣٧هـ.
١٧- مسند الإمام أحمد بن حنبل، شرح وتحقيق: أحمد شاكر، أتمه د. الحسيني، عبد المجيد هاشم، دار المعارف، مصر، ١٣٦٥ . ١٣٧٥هـ.
١٨- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ط/ حيدر آباد ١٣٥٧هـ.
١٩- النكت في إعجاز القرآن، علي بن عيسى الرماني، تحقيق: محمد خلف الله أحمد، و د. محمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، ط٤.
٢٠- هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، إسماعيل باشا بن محمد أمين بن مسير سليم، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٣هـ.
٢١- الوافي بالوفيات، الصفدي، بيروت، ١٩٦٢م.
٢٢- وفيات الأعيان، ابن خلكان، وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت.